إي إم فورستر

# حكاية رعب

ترجمة سارة طه علام

# حكاية رعب

**تأليف**
**إي إم فورستر**

ترجمة
سارة طه علام

مراجعة
هاني فتحي سليمان

هنـــداوي

# حكاية رعب

إي إم فورستر

# The Story of a Panic

E. M. Forster

**الناشر مؤسسة هنداوي**
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
**تليفون:** ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
**البريد الإلكتروني:** hindawi@hindawi.org
**الموقع الإلكتروني:** https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

---

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٨ ٣٧١٣ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩١١.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص هذا الكتاب مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤,٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

# ١

لا شك أن مسيرة يوستاس المهنية — إذا أمكن تسميتها بذلك — تعود إلى عصر ذلك اليوم في غابة الكستناء فوق بلدة رافيلو. اعترفت في الحال أنني رجل عادي وبسيط، ولا أدَّعي بأي حالٍ من الأحول أنني صاحب أسلوب أدبي. ومع ذلك، فإنني أمتدح نفسي لأنني أستطيع أن أروي قصةً دون مبالغة؛ ولذا قررت أن أقدِّم رواية غير متحيزة للأحداث الاستثنائية التي وقعت قبل ثماني سنوات.

إن بلدة رافيلو مكان رائع يضم فندقًا صغيرًا رائعًا، الْتقَينا فيه بعض الأشخاص الساحرين. كان هناك آنستان من عائلة روبنسون، أقامتا هناك لمدة ستة أسابيع مع يوستاس ابن أخيهما، الذي كان آنذاك صبيًّا في سنٍّ تناهز الرابعة عشرة من عمره. وكان السيد ساندباتش يُقيم هناك أيضًا لبعض الوقت. كان قد تولى منصب راعي أبرشيةٍ في شمال إنجلترا، واضطُر إلى الاستقالة بسبب سوء صحته، وبينما كان يتعافى في بلدة رافيلو، تولى تعليم يوستاس — الذي كان ضعيفًا للأسف آنذاك — وكان يسعى إلى إعداده للالتحاق بواحدةٍ من مدارسنا العامة الرائعة. ثم كان هناك السيد ليلاند، وهو فنان مستقبلي؛ وأخيرًا، كانت هناك صاحبة النُّزُل اللطيفة، السيدة سكافيتي، والنادل اللطيف الذي يتحدث الإنجليزية، إيمانويل، ولكن في ذلك الوقت الذي أتحدث عنه كان إيمانويل غائبًا، يزور أباه المريض.

وكنت أنا وزوجتي وابنتاي، حسب ظني، إضافةً مرحَّبًا بها لهذه الدائرة الصغيرة. لكن على الرغم من أنني أُعجِبت بمعظم المجموعة بدرجةٍ كافية، كان هناك اثنان منهم لم أتقبَّلهما على الإطلاق. إنهما الفنان، ليلاند، وابن أخي الآنسة روبنسون، يوستاس.

لقد كان ليلاند، ببساطةٍ، مغرورًا وبغيضًا، وبما أن هذه الصفات ستتضح بإسهابٍ في روايتي، فلن أحتاج إلى الإسهاب في هذا المقام. لكن يوستاس كان شيئًا آخر، فقد كان مُنفرًا بشكلٍ لا يوصف.

أنا أحب الصبية كقاعدة عامة، وكنت أميل نوعًا ما إلى أن أكون ودودًا معهم. عرضت أنا وابنتاي أن نصحبَه في نزهة، فرفض قائلًا إن المشي مرهِق للغاية. ثم طلبتُ منه أن يذهب معنا إلى السباحة، فقال إنه لا يُجيد السباحة.

فقلت: «كل صبي إنجليزي يُجب أن يكون قادرًا على السباحة، سأعلِّمك بنفسي.»

قالت الآنسة روبنسون: «هيا يا عزيزي يوستاس؛ لقد واتتك الفرصة كي تتعلَّم السباحة.»

لكنه قال إنه يخاف من الماء! — صبي يخاف! — وبالطبع لم أقل المزيد.

لم أكن لأهتمَّ كثيرًا لو أنه كان فتًى مجتهدًا حقًّا، لكنه لم يكن جادًّا، لا في اللعب ولا الدراسة. كانت هواياته المفضلة هي الاستلقاء على كرسي مُريح بالشرفة والتسكع على طول الطريق الرئيسي، وهو يجر قدمَيه بتثاقُل على الغبار، وكتفاه مُنحنيتان إلى الأمام. وقد كان من الطبيعي أن تكون ملامحه شاحبة، وصدره منقبضًا، وعضلاته غير مكتملة النمو. اعتقدَتْ عمَّاتُه أنه هش، وأن ما كان يحتاجه حقًّا هو الانضباط.

في ذلك اليوم الذي لا يُنسى، خطَّطنا جميعًا للذهاب في نزهةٍ في أعالي الجبال إلى قلب غابات الكستناء؛ كلنا، باستثناء جانيت، التي بقِيَت لإنهاء لوحتها بالألوان المائية للكاتدرائية، التي يؤسِفني أن أقول إنها لم تكن محاولةً ناجحة جدًّا.

لقد خرجتُ عن الموضوع الرئيسي كي أذكر هذه التفاصيل التي لا علاقة له بها؛ لأنها في ذهني لا أستطيع فصلها عن سردي لأحداث اليوم، والأمر نفسه ينطبق على المحادثة التي دارت أثناء النزهة؛ كل شيء مطبوع في ذهني في الوقت نفسه. بعد رحلة صعود استمرت ساعتَين، تركنا الحمير التي حملت الآنستين روبنسون وزوجتي، واستكملْنا جميعًا الطريق سيرًا على الأقدام إلى أعلى الوادي؛ الذي اكتشفت أن اسمه الصحيح هو «فالوني فونتانا كاروزو».

زرتُ الكثير من الأماكن ذات المناظر الطبيعية الجميلة قبل هذا المكان وبعده، ولكن لم يُبهجني مكان أكثر من هذا الوادي. انتهى الوادي بفجوةٍ ضخمة على شكل كوب، تصبُّ فيها الوديان الصغيرة القادمة من التلال المنحدِرة المحيطة. كان الكستناء المُورِق يُغطي كلًّا من الوادي الكبير والوديان الصغيرة ومنحدرات التل التي تفصل بين الوديان، بحيث

كان المظهر العام أشبهَ بيدٍ خضراء متعددة الأصابع، راحتها للأعلى، تُمسك بنا بعنفٍ كي تُبقينا في قبضتها. بعيدًا في أسفل الوادي، كان بمقدورنا رؤية بلدة رافيلو والبحر، لكن تلك كانت العلامة الوحيدة لوجود عالَم آخر.

قالت ابنتي روز: «يا له من مكان جميل للغاية. سيصنع لوحة رائعة!»

قال السيد ساندباتش: «أجل، ستفتخر العديد من صالات العرض الأوروبية الشهيرة بوجود منظر طبيعي جميل بعُشر هذا الجمال على جدرانها.»

قال ليلاند: «على العكس من ذلك، سيصنع لوحةً سيئة للغاية. في الواقع، لا يمكن رسمُه على الإطلاق.»

قالت روز باحترامٍ أكبر بكثير مما يستحق: «وما سبب ذلك؟»

أجاب: «انظري، أولًا، كم أن خط التل مستقيم بصورة لا تُطاق في مقابلة السماء. سيتطلب الأمر كسر هذه الاستقامة ورسم خط التل بصورةٍ مختلفة. وفي المكان الذي نِقف فيه، كان كل شيءٍ خارج المنظور. وعلاوة على ذلك، فكل الألوان درجة واحدة وأولية.»

قلت: «لا أعرف شيئًا عن اللوحات، ولا أتظاهر بالمعرفة؛ لكنني أعرف ما هو جميل عندما أراه، وأنا في غاية السعادة بهذا المنظر.»

قالت الآنسة روبنسون الأكبر سنًّا: «بالتأكيد، مَن هذا الذي لا يبهجه مكان كهذا؟!»، ووافقها السيد ساندباتش على ذلك.

قال ليلاند: «أوه! أنتم جميعًا تخلطون بين النظرة الفنية للطبيعة والنظرة التصويرية.»

كانت روز المسكينة قد أحضرت آلة التصوير الخاصة بها معها؛ لذلك ظننتُ أن هذا تصرف غير لائق. لم أكن أرغب في أي خلافاتٍ سخيفة؛ لذا ببساطة أشحْتُ بوجهي عنه وساعدت زوجتي والسيدة ماري روبنسون على إخراج الغداء الذي لم يكن غداءً شهيًّا للغاية.

قالت عمَّته: «يوستاس، عزيزي، تعال هنا وساعدنا.»

كان الصبي مُعَكَّر المزاج جدًّا ذلك الصباح. كالعادة، لم يكن يرغب في المجيء، وكادت عمَّاته يسمحنَ له بالبقاء في الفندق لإزعاج جانيت. لكنني، بعد إذنهن، تحدثت معه بحدة إلى حدٍّ ما بشأن ممارسة الرياضة، وكانت النتيجة أنه رافَقَنا، لكنه كان أكثر صمتًا وعصبيةً من المعتاد.

الطاعة لم تكن نقطة قوَّته. كان دائمًا يُشكك في كل أمر، ولا يُنفذه إلا وهو يتذمَّر. لو كان لديَّ ابن، لكنتُ سأُصر دائمًا على أن يكون مطيعًا وسريع الاستجابة دون امتعاض.

أجاب أخيرًا: «أنا ... قادم ... يا عمة ... ماري»، وتباطأ في قطْع قِطعة من الخشب لصنع صفارة، وهو حريص ألَّا يأتي حتى ننتهي.

قلت: «حسنًا، حسنًا يا سيدي! ستأتي متبخترًا في النهاية وتستفيد ممَّا فعلنا نحن!» تنهَّد؛ لأنه لم يستطع تحمُّل المزاح. أصرت الآنسة ماري، بغير حكمةٍ تمامًا، على إعطائه جناح الدجاجة، على الرغم من كل محاولاتي لمنعِها. أتذكر أنني شعرتُ لحظةً بالضيق عندما فكرتُ أنه بدلًا من الاستمتاع بالشمس والهواء والغابات، كنا جميعًا مُنخرطين في جدالٍ حول النظام الغذائي لصبي مُدلل.

لكن بعد الغداء، لم يظهر كثيرًا. انسحب إلى جذع شجرة، وبدأ يستخدم قطعة من الخشب لنحت صافرته. كنتُ ممتنًّا لرؤيته يعمل، ولو لمرةٍ واحدة. استلقَينا، ونعِمنا باستراحة لطيفة.

إن حبَّات الكستناء الحلوة هذه الموجودة في الجنوب تعتبر ضعيفة وصغيرة جدًّا مقارنةً بحبَّاتنا الشمالية القوية. لكنها كست حدود التلال والوديان بصورة مبهجة للغاية، ولم يكسر حجابها سوى قطعتَين من الأرض مقطوعتَي الأشجار كنَّا نجلس في واحدةٍ منهما.

وبسبب هذه الأشجار القليلة التي جرى قطعها، انفجر ليلاند يكيل اتهاماتٍ تافهةً للمالك.

صاح قائلًا: «الشِّعر برمته يختفي من الطبيعة، لقد جفَّت بُحيراتها ومُستنقعاتها، وحُوصرت بحارها بالسدود، وقُطِّعَت غاباتها. وفي كل مكانٍ نرى سوقية التخريب تنتشِر.»

كنتُ قد اكتسبت بعض الخبرة في مجال العقارات، وأجبتُ بأن القطع ضروري جدًّا لصحة الأشجار الكبيرة. وفوق ذلك، كان من غير المعقول أن نتوقع من المالك ألا يتحصل على أي دخلٍ من أرضه.

«إذا نظرت إلى الجانب التجاري للمناظر الطبيعية، فقد تشعر بالرضا عن نشاط المالك. ولكن بالنسبة إليَّ، فإن مجرد التفكير في أن الشجرة يمكن تحويلها إلى أموالٍ هو أمر مُثير للاشمئزاز.»

قلت بأدب: «لا أرى سببًا لاحتقار عطايا الطبيعة؛ لأنها ذات قيمة.»

لم يمنعه ذلك من مواصلة الجدال. وتابع قائلًا: «لا يهم، فجميعنا غرقى في الابتذال بشكل يائس. ولا أستثني نفسي. فمن خلالنا، ومن عارنا، هجرَتْ حوريات البحر المياه وحورياتُ الجبل الجبالَ، ولم تعد توفِّر الغابة المأوى للإله بان.»

«بان!» صاح السيد ساندباتش، بصوته الرخيم الذي ملأ جنبات الوادي كما لو كان كنيسةً خضراء ضخمة: «لقد مات بان. ولهذا السبب لا تُئويه الغابة.» وبدأ يروي القصة

المذهلة للبحَّارة الذين كانوا يُبحرون على مقربة من الساحل وقت ميلاد المسيح، فسمع صدى صوته يتردد عاليًا ثلاث مرات: «لقد مات الإله العظيم بان.»

قال ليلاند: «أجل. لقد مات الإله العظيم بان.» وقد استسلم لذلك البؤس الزائف الذي يعشق الفنانون الانغماس فيه. انطفأ سيجاره، وتطلب الأمر منه أن يطلب مني عود ثقابٍ لإشعاله.

قالت روز: «يا له من أمر مُثير للاهتمام حقًّا. أتمنَّى لو أنني أعرف بعض المعلومات عن التاريخ القديم.»

قال السيد ساندباتش: «الأمر لا يستحق اهتمامك. أليس كذلك يا يوستاس؟»

كان يوستاس يُنهي العمل على صافرته. رفع بصرَه، وعلى وجهه تعبيرات العبوس والغضب التي سمحت له عمَّاته بالانغماس فيها، ولم يرد.

تغيرت المحادثة وتفرَّعت إلى مواضيع مختلفة ثم توقَّفت. كان وقت العصر، وكانت الأجواء صافيةً في هذا اليوم من أيام شهر مايو، وكان اللون الأخضر الفاتح لأوراق الكستناء اليافعة يُعطي تناقضًا لونيًّا جميلًا مع لون السماء الأزرق الداكن. كنا جميعًا جالسين على حافة المساحة الصغيرة الخالية من الأشجار للاستمتاع بالمنظر، وكان واضحًا أن ظل شجيرات الكستناء خلفنا لم يكن كافيًا. تلاشت جميع الأصوات؛ أو على الأقل هذه هي روايتي: تقول الآنسة روبنسون إن صخب الطيور كان أول علامة لاحظتُها على الارتباك. تلاشت جميع الأصوات، فيما عدا أنني كنت أسمع، على مسافة بعيدة، صوت غصنَي شجرة كستناء كبيرة يحتكَّان بعضهما ببعض بقوة بينما كانت الشجرة تتمايل. أصبحت أصوات الاحتكاك أقصر فأقصر، وفي النهاية توقَّف هذا الصوت أيضًا. عندما نظرتُ إلى أصابع الوادي الخضراء، كان كل شيءٍ ثابتًا وساكنًا تمامًا؛ وبدأ يسيطر عليَّ هذا الشعور بالتشويق والترقُّب الذي غالبًا ما ينتاب المرء عندما تكون الطبيعة في حالة سكون.

فجأة، انتفضنا جميعًا مصدومِين من صوت صافرة يوستاس الحاد المؤلِم. لم يسبق لي أن سمِعت أي آلة تُخرج صوتًا نشازًا يُصِم الآذان كهذا.

قالت الآنسة ماري روبنسون: «يوستاس عزيزي، كان عليك أن تفكر في رأس عمَّتك جوليا المسكينة.»

نهض ليلاند، الذي بدا أنه كان نائمًا.

علق ليلاند قائلًا: «من المذهل كم أن عينَي الصبي لا تُبصران أي شيءٍ راقٍ أو جميل.» وتابع: «لم أكن أعتقد أن بمقدوره أن يجد هنا الوسيلة اللازمة ليُفسد مُتعتنا بهذا الشكل.»

ثم حلَّ علينا الصمت الرهيب ثانية. كنت أقف الآن أُشاهد الرياح تهبُّ على أحد التلال المقابلة، وتُحرك الأشجار فتحوِّل اللون الأخضر الفاتح لوجه الأوراق إلى الأخضر الداكن لوجهها الآخر. سيطر عليَّ شعور مُتوهم يُنذر بالشر، فأشحتُ بوجهي بعيدًا لأجد أن الآخرين جميعًا كانوا واقفين أيضًا، يُراقبونها مثلي، وهو الأمر الذي أصابني بالدهشة.

ليس من الممكن وصف ما حدث بعد ذلك بشكلٍ مترابط؛ لكنني شخصيًّا، لا أخجل من الاعتراف بأنه على الرغم من صفاء السماء الزرقاء فوقي، وغابات الربيع الخضراء تحتي، وأطيب الأصدقاء من حولي، أصابني خوف شديد لا أرغب في أن أشعُر به بعد ذلك أبدًا، كنت أشعر بخوف لم أشعر به من قبل ولا من بعد. وفي عيون الآخرين أيضًا، رأيتُ خوفًا فارغًا يخلو من التعبير، بينما كانت تُحاول أفواههم عبثًا التحدث، وأيديهم الإيماء. ومع ذلك، لم يكن يُحيط بنا سوى الرخاء والجمال والسلام، وكان كل شيءٍ ساكنًا، باستثناء الرياح التي تهبُّ بخفة، والتي كانت تتحرك الآن أعلى التل الذي نقف عليه.

لم نستقر أبدًا على من يتحرك أولًا. يكفي أن نقول إنه في ثانيةٍ واحدة كنا نندفع بسرعةٍ على طول جانب التل. كان ليلاند في المقدمة، تلاه السيد ساندباتش، ثم زوجتي. لكنني لم تتسنَّ لي الرؤية سوى للحظةٍ وجيزة؛ لأنني ركضت عبر المساحة المقطوعة من الأشجار وعبر الغابة وفوق الشجيرات والصخور وأسفل قيعان السيول الجافة إلى الوادي بالأسفل. لعل السماء كانت سوداء وأنا أركض، والأشجار أعشابًا قصيرة، وجانب التل المنحدِر طريقًا مستويًا؛ إذ إنني لم أرَ شيئًا ولم أسمع شيئًا ولم أشعر بشيء؛ لأن جميع عمليات الإدراك والتفكير كانت مُعطلة. لم يكن هذا الخوف هو الخوف الروحاني الذي انتابني في أوقاتٍ أخرى، بل كان خوفًا جسديًّا وحشيًّا ومسيطرًا، يصم الآذان، ويُغشي العينَين، ويملأ الفم بمذاقٍ سيئ. ولم يكن مجرد خوفٍ عادي عابر، فلم أكن إنسانًا يشعر بالخوف، بل حيوانًا مذعورًا.

# ٢

لا أستطيع أن أصف نهايتنا على نحوٍ أفضل من بدايتنا؛ لأن خوفنا تلاشى كما بدأ، بلا سبب. وفجأة، تمكنت من الرؤية والسمع والسعال وابتلاع ريقي. عندما نظرتُ ورائي، رأيت أن الآخرين كانوا يتوقفون أيضًا؛ وفي وقتٍ قصير، كنا جميعًا معًا، رغم مرور وقتٍ طويل قبل أن نتمكَّن من الحديث، ووقت أطول قبل أن نجرؤ على ذلك.

لم يُصَب أحد بإصاباتٍ خطيرة. تعرضت زوجتي المسكينة لالتواءٍ في كاحلها، وكُسر أحد أظافر ليلاند على جذع شجرة، أما أنا فقد خدشتُ أُذني وألحقتُ بها الضرر. لم ألحظ ذلك حتى توقفت.

خيم الصمت علينا جميعًا، وأخذنا يتفحص بعضنا وجوه بعض. فجأة أطلقت الآنسة ماري روبنسون صرخةً رهيبة. «أوه، يا إلهي الرحيم! أين يوستاس؟» ثم كادت تسقط لولا أن السيد ساندباتش أمسكها.

قالت ابنتي روز، التي كانت تتمتع برباطة جأش تفوق بقية أفراد المجموعة: «يجب أن نعود، يجب أن نعود على الفور. لكني آمُل — أشعر أنه بأمان.»

كان ليلاند جبانًا لدرجة أنه اعترض على ذلك. ولكن بعد أن وجد نفسه أقلية، وخوفًا من أن يُتْرَك بمفرده، استسلم. ساعدتُ أنا وروز زوجتي المسكينة، وساعد السيد ساندباتش والسيدة روبنسون الآنسة ماري، وعُدنا ببطءٍ وصمت، واستغرقْنا ٤٠ دقيقة لصعود المسار الذي نزلنا منه في ١٠ دقائق.

كان حديثنا بطبيعة الحال مُفككًا؛ إذ لم يرغب أحد في إبداء رأيه فيما حدث. كانت روز الأكثر ثرثرة؛ لقد أذهلتنا جميعًا بقولها إنها كادت تتوقَّف حيثما كانت.

قال السيد ساندباتش: «هل تقصدين أنك لم تكوني ... أقصد أنك لم تشعُري بأنك مُجبرة على السير؟»

قالت: «أوه، بالطبع، لقد تملَّكني الخوف» — كانت أول من استخدم هذه الكلمة — «ولكنني شعرت بطريقةٍ ما أنني إذا استطعتُ التوقُّف فسيكون الأمر مختلفًا تمامًا، وأنني لن أشعُر بأي خوفٍ على الإطلاق، إذا جاز التعبير.» لم تُعبر روز عن نفسها بوضوح أبدًا، ومع ذلك، فهي جديرة بعظيم الثناء لأنها، وهي أصغرنا سنًّا، صمدت لفترةٍ طويلة في ذلك الوقت الرهيب.

تابعت روز قائلة: «أعتقد أنني كان يتعين عليَّ أن أتوقَّف، لو لم أرَ أُمي تمضي.»

بعثت تجربة روز في نفوسنا بعض الاطمئنان بشأن يوستاس. لكن شعورًا رهيبًا ينذر بحدوث شرٍّ تملَّكنا جميعًا، ونحن نتسلق بصعوبة المنحدرات المغطاة بالكستناء ونقترب من المنطقة الخالية من الأشجار. عندما وصلنا إليها، تحررت عقدة ألسنتنا. هناك، على الجانب الآخر، كانت بقايا غدائنا هناك، وبالقرب منها، كان يوستاس مُمددًا بلا حراك على ظهره.

وبشيءٍ من الحضور الذهني، صِحت على الفور قائلًا: «مرحبًا، أنت أيها القرد الصغير! انهض!» لكنه لم يرد، ولم يُجب على عمَّاته المسكينات عندما تحدثنَ إليه. وما أثار رُعبي بشكل لا يوصف، هو أنني رأيت إحدى تلك السحالي الخضراء تخرج مُسرعة من تحت كُم قميصه عندما اقتربنا منه.

وقفنا نُراقبه وهو يرقد هناك بصمتٍ مطبق، وبدأت أُذناي تَخِزَانني تحسبًا لانفجارٍ من النحيب والدموع.

جثت الآنسة ماري على ركبتَيها بجانبه ولمست يدَه التي كانت متشابكة بتشنُّج في العشب الطويل.

وعندما فعلت ذلك، فتح عينَيه وابتسم.

ومنذُ ذلك الحين، كثيرًا ما رأيت تلك الابتسامة الغريبة، سواء على وجه المالك أو في صوره الفوتوغرافية التي بدأت تظهر في الصحف المصورة. لكن حتى ذلك الحين، كان العبوس والغضب والاستياء هي التعبيرات التي ارتسمت على وجه يوستاس دائمًا؛ وكنَّا جميعًا غير مُعتادين على هذه الابتسامة المزعِجة، التي كان يبدو دائمًا أنها بلا سبب وجيه.

أمطرته عمَّاته بالقُبلات التي لم يبادلهنَّ إيَّاها، ثم ساد صمتٌ غير مريح، بدا يوستاس طبيعيًّا وغير مُضطرب، ومع ذلك، لو أنه لم يكن قد خاض تجارب مُدهشة بنفسه، لكان ينبغي أن يكون أكثر دهشةً لسلوكِنا الغريب. حاولت زوجتي بلباقة غريزية سريعة أن تتصرف وكأن شيئًا لم يحدث.

قالت وهي تجلس لتُخفف من أَلَم قدمها: «حسنًا يا سيد يوستاس، كيف كنتَ تسلي نفسك منذ أن غبنا؟»

أجاب قائلًا: «شكرًا لك يا سيدة تايتلر، لقد كنتُ في غاية السعادة.»

«وأين كنت؟»

«هنا.»

«وكنت مُستلقيًا طوال الوقت، أيها الفتى الكسول؟»

«لا، ليس طيلة الوقت.»

«ماذا كنت تفعل قبل ذلك؟»

«أوه؛ كنت إما واقفًا أو جالسًا.»

«كنت تقف وتجلس دون أن تفعل شيئًا! ألا تعرف القصيدة التي تقول إن «الأيدي العاطلة هي أدوات الشيطان ...»؟»

«أوه، يا سيدتي العزيزة، اصمتي! اصمتي!»، قاطعها السيد ساندباتش فجأة، فشعرت زوجتي بالإهانة بطبيعة الحال بسبب مُقاطعته، فلم تقُل شيئًا آخر وابتعدت. فوجئت برؤية روز تأخذ مكانها على الفور، وبحرية أكبر مما تُظهره عادة، مرَّرَت أصابعها بين شَعر الصبي الأشعث.

قالت بسرعة: «يوستاس! يوستاس! أخبِرني بكل شيء، كل شيء.»

جلس ببطء — وكان حتى ذلك الحين مُستلقيًا على ظهره.

«أوه يا روز»، قال همسًا، وبعد أن أثار فضولي، اقتربتُ لأسمع ما سيقوله. وبينما كنت أفعل ذلك، لمحتُ آثار أقدام بعض الماعز في التربة الرطبة تحت الأشجار.

أشرتُ قائلًا: «لقد زارتك بعض الماعز فيما يبدو. لم يكن لديَّ أي فكرة أن الماعز ترعى هنا.»

نهض يوستاس بشقٍّ الأنفس وأتي ليرى، وعندما رأى آثار الأقدام، استلقى وتدحرج عليها، كما يتمرغ الكلب في التراب.

بعد ذلك ساد صمت مُطبق، قطعَه أخيرًا خطاب السيد ساندباتش الجاد الرصين.

قال: «يا أصدقائي الأعزاء، من الأفضل أن نعترف بالحقيقة بشجاعة. أعلم أن ما سأقوله الآن هو ما تشعرون به جميعًا في الوقت الحالي. لقد كان الشيطان قريبًا جدًّا منَّا في صورة جسدية. ربما يكشف الوقت عن بعض الأذى الذي أوقعه بيننا. ولكن، في الوقت الحالي، بالنسبة إليَّ على الأقل وفي جميع الأحوال، أريد أن أشكر الله على الخلاص الرحيم.»

وبقوله هذا ركع، وبينما ركع الآخرون، ركعتُ أنا أيضًا، على الرغم من أنني لا أومن بأن الشيطان مسموح له أن يهاجمنا في صورة مرئية، كما أخبرتُ السيد ساندباتش لاحقًا. أتي يوستاس أيضًا، وركع بهدوءٍ مقبول بين عمَّاته بعد أن أومأْنَ إليه. ولكن بعد أن انتهى الأمر، نهض على الفور، وبدأ يبحث عن شيءٍ ما.

قال: «أوه! لقد شق أحدهم صافرتي إلى نصفَين.» (لقد رأيتُ ليلاند يحمل سكينًا مفتوحًا في يده، وهو تصرُّف من يؤمن بالخُرافات لا أوافِق عليه أبدًا).

وتابع قائلًا: «حسنًا، لا يهم.»

«ولماذا لا يهم؟» هكذا قال السيد ساندباتش، الذي كان يُحاول منذ ذلك الحين أن يوقع بيوستاس في الكلام كي يسرد ما حدث في تلك الساعة الغامضة.

«لأنني لا أريدها بعد الآن.»

«لماذا؟»

عندها ابتسم الصبي؛ وبما أنه لم يكن لدى أي أحدٍ على ما يبدو أيُّ شيء آخر ليقوله، انطلقتُ بأسرع ما يمكن عبر الغابة، وسحبتُ حمارًا لأحمل زوجتي المسكينة إلى المنزل. لم يحدث شيء في غيابي، باستثناء أن روز طلبت من يوستاس مرةً أخرى أن يُخبرها بما حدث، ولكنه هذه المرة، أدار رأسه بعيدًا، ولم يُجبها بكلمةٍ واحدة.

بمجرد عودتي، انطلقنا جميعًا. مشى يوستاس بصعوبةٍ وبألَم تقريبًا، لذا، عندما وصلنا إلى الحمير الأخرى، رغبت عمَّاته في أن يمتطي أحدها طوال الطريق إلى المنزل. لديَّ قاعدة ألتزم بها وهي ألا أتدخل أبدًا بين الأقارب، ولكنني تدخَّلتُ لمنع ذلك. وكما اتضح فيما بعد، تبين أنني كنت على حقٍّ تمامًا؛ لأن هذا التمرين الصحي، على ما أعتقد، بدأ يُحرك دورته الدموية الراكدة ويُرخي عضلاته المتصلِّبة. مشى بخُطى مسرعة لأول مرة في حياته، رافعًا رأسه لأعلى، مُستنشقًا الهواء بعمق ساحبًا إيَّاه إلى صدره. أشرت برضًا إلى الآنسة ماري روبنسون أن يوستاس أصبح أخيرًا يشعر بشيءٍ من الفخر بمظهره الشخصي.

تنهَّد السيد ساندباتش، وقال إنه يجب مراقبة يوستاس بعناية؛ لأن أيًّا منَّا لم يفهمه بعد. تنهَّدت الآنسة ماري روبنسون أيضًا، التي كانت تسترشد به كثيرًا — أكثر من اللازم، في رأيي.

قلت: «بربك يا آنسة روبنسون. لا يُوجَد مشكلة في يوستاس. تجاربنا غامضة، وليس تجربته. لقد ذهل من رحيلنا المفاجئ، ولهذا كان غريبًا للغاية عندما عُدنا. إنه بخير تمامًا، ولقد تحسَّن، إن صح التعبير.»

قال ليلاند: «وهل يعتبر تبجيل القدرة البدنية والنشاط الأعمى المُنعدِم العقل حدَّ العبادة، بمثابة تحسُّن؟» وركز عينَيه الكبيرتَين بحزنٍ على يوستاس، الذي توقف ليتسلَّق صخرة باندفاع كي يقطف بعضًا من نبات بخور مريم. «وهل الرغبة الشديدة في انتزاع الجمال القليل الباقي من الطبيعة، يمكن اعتبارها تحسُّنًا أيضًا؟»

إن الرد على مثل هذه التعليقات مَضيعة للوقت، خاصة عندما تأتي من فنانٍ فاشل يُعاني من إصبع مُصابة. غيرت موضوع الحديث بسؤالي عما يجب أن نقوله في الفنادق. وبعد بعض المناقشات، اتفقنا على ألا نقول أي شيء، سواء في الفندق أو في رسائلنا التي سنُرسلها إلى عائلاتنا. إن الصدق المزعج، الذي لا يجلب سوى الحيرة والإزعاج للسامعين، هو أمر خاطئ في رأيي؛ وبعد نقاشٍ طويل، تمكنت من إقناع السيد ساندباتش بالموافقة على وجهة نظري.

لم يشارك يوستاس في محادثتنا. كان يركض، كصبيٍّ حقيقي، في الغابة إلى اليمين. شعور غريب بالخجل؛ منعنا من ذكر خوفنا له علانية. في الواقع، بدا من المعقول تقريبًا أن نستنتج أن محادثتنا لم تؤثر فيه سوى تأثير ضئيل. لذلك شعرنا بالانزعاج عندما عاد حاملًا حفنةً من نبات الأقنثا المزهر وهو يصيح قائلًا:

«هل تعتقدون أن جينارو سيكون هناك عندما نعود؟»

كان جينارو هو النادل المؤقت، وهو صياد سمك أخرق وقح، أتَوا به من مينوري في غياب إيمانويل اللطيف الذي يتحدث الإنجليزية. كان الفضل يرجع إلى جينارو في الغداء السيئ الذي تناولناه، ولم أستطع أن أفهم سبب رغبة يوستاس في رؤيته، إلا إذا كان للسخرية من سلوكنا.

قالت الآنسة روبنسون: «أجل، بالطبع سيكون هناك. لماذا تسأل يا عزيزي؟»

«أوه، فكرت في أنني أرغب في رؤيته.»

قال السيد ساندباتش غاضبًا: «ولماذا؟»

«لأنني؛ لأنني أرغب، أرغب؛ لأنني؛ لأنني أرغب.» ورقص على إيقاع كلماته مبتعدًا في الغابة المظلمة.

قال السيد ساندباتش: «هذا أمر غريب للغاية. هل كان يُحب جينارو من قبل؟»

قالت روز: «لم يُمضِ جينارو هنا سوى يومَين، وأنا أعلم أنهما لم يتحدثا مع بعضهما كثيرًا.»

في كل مرة كان يعود فيها يوستاس من الغابة، تكون معنوياته مرتفعة أكثر. في إحدى المرات جاء يصيح فينا كهنديٍّ متوحش، وفي مرة أخرى تظاهر بأنه كلب. في المرة

الأخيرة، عاد بأرنبٍ مسكين مذهول يجلس على ذراعه، مُرتعبًا لدرجة منعته من الحركة. فكرت في أنه أصبح صاخبًا للغاية، وكنا جميعًا سعداء بمغادرة الغابة والبدء في السير على مسار الدرج الشديد الانحدار الذي يؤدي إلى بلدة رافيلو. كان الوقت متأخرًا وكان الظلام يحل، وكنا نتحرك بأقصى سرعة مُمكنة، ويوستاس يهرول أمامنا كالعنزة.

وفي المكان نفسه تمامًا الذي يفضي فيه مسار الدرج إلى الطريق السريع الأبيض، وقع الحدث الاستثنائي التالي لهذا اليوم الاستثنائي. كان ثلاث نساء عجائز يقفنَ على جانب الطريق. لقد جِئنَ، مثلنا، من الغابة، وكُنَّ يضعْنَ حُزَم الحطب الثقيلة على حاجز الطريق المنخفض. توقف يوستاس أمامهن، وبعد لحظة من التفكير، تقدم للأمام وقبَّل السيدة التي كانت تقف على اليسار على خدها!

صاح السيد ساندباتش قائلًا: «يا رفيقي الطيب! هل أنت مجنون؟»

لم يقل يوستاس شيئًا، لكنه عرض على المرأة العجوز بعضًا من زهوره، ثم سارع بالمضي قدمًا. نظرت إلى الوراء، وبدت رفيقتا المرأة العجوز مندهشتَين من هذا التصرف مثلنا تمامًا. ولكنها وضعت الزهور في صدرها، وكانت تتمتم بالصلوات.

كانت تحية السيدة العجوز هذه أول مثال على سلوك يوستاس الغريب، وهو ما فاجأنا وأزعجنا في الوقت نفسه. لم يكن الحديث معه مُجديًا؛ لأنه إما كان يُجيب بردودٍ سخيفة، وإما أن يرحل دون أن يجيب على الإطلاق.

لم يُثر يوستاس في طريق العودة إلى جينارو، وتمنَّيت أن يكون ذلك قد نُسِيَ. ولكن، عندما وصلنا إلى الساحة، أمام الكاتدرائية، صرخ بأعلى صوته قائلًا: «جينارو! جينارو!»، وبدأ يركض في الزقاق الصغير المؤدي إلى الفندق. مما لا شك فيه، كان جينارو هناك في نهاية الزقاق، وذراعاه وساقاه بارزة من بدلة النادل الصغير اللطيف الذي يتحدث الإنجليزية، ويعتمِر قبعة صياد قذرة على رأسه؛ لأنه، كما قالت صاحبة المنزل المسكينة بصِدق، مهما كانت تشرف على مظهره وتهتم به، كان دائمًا ما يتمكن من إضافة شيءٍ غير مناسب إليه قبل أن يفرغ.

قفز يوستاس لملاقاته، ووثب مباشرةً بين ذراعَيه، ووضع ذراعَيه حول رقبته. ولم يكن ذلك في حضورنا نحن فحسب، بل أيضًا في حضور صاحبة المنزل، والخادمة، وحامل الحقائب، وسيدتَين أمريكيتَين جاءتا لزيارة الفندق الصغير لبضعة أيام.

إنني أحرص دائمًا على التصرُّف بلُطف مع الإيطاليين، حتى لو كانوا لا يستحقون ذلك؛ لكن هذا السلوك الحميمي الفاسد كان غير مُحتمل على الإطلاق، ولن يؤدي إلا إلى رفع

الكلفة والإهانة للجميع. أخذتُ الآنسة روبنسون على انفراد، وطلبتُ منها الإذن بالتحدث بجدية مع يوستاس حول سلوكه المتساهل مع الأقلِّ منزلةً اجتماعية. منحتني الإذن، لكنني قررتُ الانتظار حتى يهدأ الصبي السخيف قليلًا من حماسة اليوم. في هذه الأثناء، بدلًا من الاهتمام بطلبات السيدتَين الجديدتَين، حمل جينارو يوستاس إلى المنزل، كما لو كان هذا شيئًا معتادًا تمامًا وعاديًّا.

سمعته يقول وهو يمر بجانبي: «هو كابيتو.» وهو تعبير بالإيطالية يعني، «لقد فهمت»، ولكن بما أن يوستاس لم يتحدث معه، لم أتمكن من فهم مغزى هذا التعليق. وهو ما قد أدى إلى زيادة حيرتنا، وبحلول الوقت الذي جلسنا فيه حول المائدة لتناول العشاء، كانت قد اسْتُنزِفت قدرتنا على التخيل والكلام على حدٍّ سواء.

حذفت من هذا السرد التعليقات المختلفة التي قيلت؛ إذ يبدو أن القليل منها يستحق التسجيل. ولكن، لمدة ثلاث أو أربع ساعات، كان سبعة منا يسكبون حيرتنا في سَيل من التعجب المناسب وغير المناسب. وأرجع البعض وجود صلةٍ بين سلوكنا في فترة ما بعد الظهر وسلوك يوستاس الآن. بينما لم يرَ آخرون أي صلةٍ على الإطلاق. ظل السيد ساندباتش مُتمسكًا بإمكانية وجود تأثيرات شيطانية، وقال أيضًا إنه يجب أن يُعرَض على طبيب. أما ليلاند، فلم يرَ سوى تطور «ذلك الصبي الجاهل الذي يعجز اللسان عن وصفه.» وأصرَّت روز، لدهشتي، على أن كل شيءٍ يمكن اغتفاره؛ بينما بدأت أرى أن الشاب الصغير يحتاج لأن يتعرَّض لضربٍ شديد. كانت الآنسة روبنسون المسكينة تتأرجح بلا حول ولا قوة بين هذه الآراء المتنوعة؛ فتارة تميل إلى الإشراف الدقيق، وتارة إلى الإذعان، وتارة إلى التأديب الجسدي، وتارة إلى العلاج باستخدام أملاح إينو الفوارة.

مر العشاء بشكلٍ جيد إلى حدٍّ ما، على الرغم من أن يوستاس كان مُتململًا للغاية، بينما كان جينارو كالعادة يُسْقِط السكاكين والملاعق، ويتنخع ويُنظف حلقه. لم يكن يعرف سوى بضع كلمات من اللغة الإنجليزية، وقد أجبرنا جميعًا على الاقتصار على استخدام الإيطالية كي نُعلمه بطلباتنا. طلب يوستاس، الذي تعلم القليل بطريقةٍ ما، بعض البرتقال. ما أثار انزعاجي هو أن جينارو استخدم في إجابته ضمير المخاطب المفرد، وهي صيغة لا تستخدَم إلا عند مخاطبة الأشخاص المقربين والمتساوين. لقد جلب يوستاس ذلك على نفسه، ولكن وقاحةً كهذه كانت بمثابة إهانةٍ لنا جميعًا؛ لذا كنت مُصممًا على التحدث، والتحدث فورًا.

عندما سمعته ينظف الطاولة تحدثت على الفور، واستدعيتُ حصيلتي من الإيطالية، أو بالأحرى النابوليتانية — اللهجات الجنوبية بغيضة — وقلت: «جينارو! لقد سمعتُك تخاطب السيد يوستاس بـ «أنتَ».»

«هذا صحيح.»

«إنك مُخطئ. يجب أن تستخدِم صيغ أكثر تهذيبًا مثل «حضرتك». وتذكَّر أنه على الرغم من أن السيد يوستاس يتصرف أحيانًا بسخف وحمق — مثلما فعل عصر هذا اليوم على سبيل المثال — إلا أنه يجب عليك دائمًا أن تتصرف معه باحترام؛ لأنه سيد إنجليزي شاب، وأنت صبي إيطالي صياد فقير.»

أعلم أن كلامي يبدو مُتعجرفًا للغاية، ولكن في اللغة الإيطالية يمكن للمرء أن يقول أشياء لا يمكن أن يحلم المرء حتى بقولها في اللغة الإنجليزية. علاوة على ذلك، ليس من الجيد التحدُّث بلِينٍ مع أشخاص من تلك الطبقة. ما لم تحدَّد الأمور بوضوح، فإنهم سيستمتعون بإساءة فهمك بخُبث شديد.

لو كنت وجهت مثل هذه الملاحظة لصياد إنجليزي نزيه، لكان لكمَني في عيني في الحال، ولكن الإيطاليين البائسين المنسحِقين يفتقرون إلى الكبرياء. لم يفعل جينارو أي شيءٍ سوى أن تنهَّد وقال: «هذا صحيح.»

أجبت قائلًا: «تمامًا»، واستدرتُ للذهاب. ما أثار سخطي أنني سمعته يضيف: «لكن في بعض الأحيان لا يكون الأمر مهمًّا.»

صحت قائلًا: «ماذا تقصد؟»

اقترب مني وأومأ بأصابعه البشعة.

«سيد تايتلر، أودُّ أن أقول هذا. إذا طلب منِّي يوستازيو أن أُخاطبه بـ «حضرتك»، سأفعل. ولكن بخلاف ذلك لن أفعل.»

وبذلك أمسك بصينية بها أغراض العشاء، وغادر الغرفة سريعًا وهو يحملها؛ وسمعت كأسَين آخرَين من النبيذ يسقطان على أرضية الفناء.

كنت الآن غاضبًا نوعًا ما، وخرجت لأتحدث مع يوستاس. لكنه كان قد أوى إلى الفراش، وكانت صاحبة المنزل، التي كنتُ أرغب في التحدُّث إليها أيضًا، مشغولة. وبعد مزيدٍ من التساؤلات المبهمة، التي عبرنا عنها بغموض بسبب وجود جانيت والسيدتَين الأمريكيتَين، أوَيْنا جميعًا إلى الفراش أيضًا، بعد يومٍ مُرهق وشديد الغرابة.

# ٣

لكن النهار كان لا شيء مُقارنة بالليل.

أعتقد أنني قد نمتُ لمدة أربع ساعات تقريبًا، عندما استيقظتُ فجأة معتقدًا أنني سمعت ضوضاء في الحديقة. وعلى الفور، وقبل أن أفتح عيني، تملكني خوف رهيب جمَّد أوصالي، ليس خوفًا من شيء كان يحدث، مثل الخوف الذي شعرتُ به في الغابة، ولكن خوفًا من شيءٍ قد يحدث.

كانت غرفتنا في الطابق الأول، وتطل على الحديقة؛ أو على الشرفة، التي كانت بالأحرى عبارة عن كتلة من الأرض على شكل إسفين مُغطاة بالورود وأشجار الكروم، وتتقاطع مع ممرَّات أسفلتية صغيرة. كان يحدُّها المنزل من الجانب القصير، وعلى طول الجانبين الطويلَين امتدَّ جدار يبلغ ارتفاعه ثلاث أقدام فقط فوق مستوى الشرفة، ولكنه انخفض مسافة ٢٠ قدمًا إلى داخل مزارع الزيتون؛ لأن الأرض كانت شديدة الانحدار.

تسللتُ إلى النافذة وكل جسدي يرتجف. هناك، رأيت شيئًا أبيض اللون يركض بخفة على الأسفلت ذهابًا وإيابًا. لقد كنتُ مفزوعًا للغاية لدرجة أنني لم أرَ بوضوح؛ وفي ضوء النجوم الملتبِس، اتخذ هذا الشيء جميع أنواع الأشكال الغريبة. كان الآن كلبًا ضخمًا، ثم خفاشًا أبيض هائلًا، والآن كتلة من السحاب الذي يتحرك بسرعة. كان يقفز مثل الكرة، أو يطير لمسافاتٍ قصيرة مثل الطيور، أو ينزلق ببطءٍ مثل الشبح. لم يصدر عنه أي صوت، باستثناء صوت وقع أقدامٍ ما لا بد أنها أقدامٌ بشرية في نهاية المطاف. وأخيرًا، فرض التفسير الواضح نفسه على ذهني المضطرب، وأدركتُ أن يوستاس قد نهض من الفراش، وأننا مُقبلون على شيءٍ أكبر.

ارتديتُ ملابسي على عجل، ونزلت إلى غرفة الطعام المفتوحة على الشرفة. كان الباب مفتوحًا بالفعل. تلاشى رُعبي على نحو شِبه تام، ولكن لمدة خمس دقائق تقريبًا كنتُ أعاني

من شعورٍ غريب بالجبن، توسَّل إليَّ ألا أتدخل في شأن الصبي الغريب المسكين، وأن أتركه لتصرُّفاته الممسوسة، وأُراقبه فحسب من النافذة لأتأكد أنه لم يلحق به أي ضرر.

ولكن انتصرت دوافع أفضل على الجُبن، وفتحتُ الباب وصحتُ قائلًا:

«يوستاس! ماذا تفعل بحق السماء؟ ادخل على الفور.»

توقف عن تصرفاته الغريبة، وقال: «إنني أكره غرفة نومي، لم أستطع البقاء فيها، فهي صغيرة جدًّا.»

«كفى! كفى! لقد سئمتُ التظاهر. إنك لم تشتكِ منها على الإطلاق من قبل.»

«وفوق ذلك، لا أستطيع رؤية أي شيءٍ منها، لا زهور ولا أوراق شجر ولا سماء؛ فقط جدار حجري.» بلا شكٍّ كان المنظر الذي تطل عليه غرفة يوستاس محدودًا؛ ولكنه لم يشتكِ من ذلك من قبل، كما أخبرته.

«يوستاس، إنك تتحدث كطفل. ادخل! اسمع الكلام فورًا، إذا سمحت.»

ولكنه لم يتحرك.

أضفتُ قائلًا: «حسنًا، سأحملك إلى الداخل بالقوة.» وتقدمت بضع خطواتٍ نحوه. لكنني سرعان ما اقتنعت بعدم جدوى ملاحقة صبي عبر مجموعة متشابكة من الطرق الأسفلتية، وبدلًا من ذلك، ذهبتُ لأستدعي السيد ساندباتش وليلاند لمساعدتي.

عندما عدت معهم كان يوستاس يتصرف أسوأ من أي وقتٍ مضى. حتى إنه لم يرد علينا عندما تحدثنا إليه، بل شرع يُغني ويثرثر مع نفسه بطريقةٍ مقلقة للغاية.

قال السيد ساندباتش وهو يُربت على جبهته بجدِّية: «إنها حالة تستدعي طبيبًا الآن.»

كان قد توقف عن الركض وكان يُغني، بصوتٍ منخفض في البداية، ثم بصوتٍ عالٍ — غنى تمارين الخمس أصابع، والسلم الموسيقي، وألحان ترنيمة، وأجزاء من موسيقى فاجنر — أي شيء يخطر في ذهنه. علا صوته النشاز أكثر فأكثر، وانتهى بصرخةٍ هائلة دوَّت مثل صوت طلقة مسدس بين الجبال، وأيقظَتْ كل من كان لا يزال نائمًا في الفندق. أطلَّت زوجتي المسكينة والفتاتان من نوافذهن، وسُمع صوت السيدات الأمريكيات وهن يقرعْنَ جرسهنَّ بعنف.

صرخنا جميعًا قائلين: «يوستاس، توقف، توقف أيها الفتى العزيز، وادخل المنزل.»

هزَّ رأسه، وانطلق ثانية، ولكنه تحدَّث هذه المرة. لم يسبق لي أبدًا أن سمعت كلامًا غريبًا مثل هذا. في أي وقتٍ آخر، كان من الممكن أن يكون الأمر مُثيرًا للسخرية؛ إذ ها نحن أمام صبي، يفتقر إلى أي إحساسٍ بالجمال ويستخدِم لغةً صبيانية في حديثه،

يحاول تناوُل موضوعاتٍ وجد أعظم الشعراء تقريبًا أنها تتجاوز قدراتهم. كان يوستاس روبنسون، الصبي البالِغ من العمر ١٤ عامًا، واقفًا بقميص نومه يُحيي ويمدح ويبارك قوى الطبيعة وتجلياتها العظيمة.

تحدث أولًا عن الليل والنجوم والكواكب التي تدور بالأعلى فوق رأسه، وعن أسراب الخنافس المضيئة أسفله، وعن البحر غير المرئي أسفل الخنافس المضيئة، وعن الصخور الضخمة المغطَّاة بشقائق النعمان والمحار النائم في البحر غير المرئي. تحدَّث عن الأنهار وشلالات المياه، وعن عناقيد العنب الناضجة، وعن مخروط بركان فيزوف الذي ينفُث الدخان، وقنوات الحِمم الخفية التي تصنع الدخان، وعن الأعداد التي لا تُعَد ولا تُحصى من السحالي التي تستلقي ملتفةً حول نفسِها في شقوق الأرض الحارة، وعن زخَّات أوراق الورود البيضاء المتشابكة في شعره. ثم تحدث عن المطر والريح اللذَين يُغيران كل شيء، وعن الهواء الذي يعيش فيه كل شيء، وعن الغابة التي يمكن أن يختبئ فيها كل شيء.

بالطبع، كان الأمر برمَّته مبالغًا فيه بشكلٍ يبعث على السخرية، ومع ذلك كنتُ على وشك ركل ليلاند لأنه أشار بصوتٍ مسموع أنه كان «صورة هزلية شيطانية لكل ما هو أقدس وأجمل في الحياة.»

«وبعد ذلك» — واصل يوستاس حديثه المثير للشفقة الذي كان في صورة شعرٍ حواري رديء، والذي كان أسلوبه الوحيد في التعبير — «ثم هناك رجال، ولكنني لا أستطيع تمييزهم جيدًا.» ركع عند الحاجز، وأراح رأسه على ذراعَيه.

همس ليلاند: «حان الوقت.» أنا أكره التسلل خلسة، ولكننا اندفعنا للأمام وحاولنا الإمساك به من الخلف. ابتعد في لمح البصر، لكنه استدار على الفور لينظر إلينا. بقدْر ما استطعت رؤيته في ضوء النجوم، كان يوستاس يبكي. اندفع ليلاند نحوَه مرة أخرى، وحاولنا محاصرته بين الممرات الأسفلتية، لكن دون أدنى مقاربة للنجاح.

عدنا لاهثين ومرتبكين، تاركين إيَّاه لجنونه في الزاوية البعيدة من الشرفة. لكن ابنتي روز أُلهِمت فكرة.

نادت من النافذة قائلة: «أبي، إذا أحضرت جينارو، فقد يتمكن من الإمساك به نيابةً عنك.»

لم أكن أرغب في طلب معروف من جينارو، ولكن بما أن صاحبة المنزل قد ظهرت الآن في المشهد، فقد توسلتُ إليها أن تستدعِيَه من حاوية الفحم التي كان ينام فيها، وتجعله يُحاول أن يفعل كل ما يمكنه فعله.

سرعان ما عادت، وتبعها جينارو بعد فترةٍ وجيزة، مُرتديًا معطفًا طويلًا، بدون صدرية أو قميص أو سترة، وسروالًا مُمزقًا، مقطوعًا فوق الركبتَين لأغراض الخوض في الماء للصيد. وبَّختْه صاحبة المنزل، التي كانت قد تعلمت العادات الإنجليزية إلى حدٍّ كبير، على المظهر غير اللائق حدَّ عدم الاحتشام الذي ظهر به.

«إنني أرتدي معطفًا وبنطالًا. ماذا تُريدين أكثر من ذلك؟»

قلت: «لا يهم يا سيدة سكافيتي، بما أنه لا تُوجَد سيدات هنا، فليس لمظهره أي تأثير.» ثم التفتُّ إلى جينارو وقلت: «عمَّات السيد يوستاس يرغبنَ في أن يُدخلنه المنزل.»

لم يُجب.

«هل تسمعني؟ إنه ليس على ما يُرام. آمُرك بأن تُدخله المنزل.»

قالت السيدة سكافيتي وهزَّته بقوة وهي تُمسك بذراعه: «أحضره! أحضره!».

«يوستازيو بخير في مكانه.»

«أحضره! أحضره!»، صرخت السيدة سكافيتي، وأطلقت وابلًا من السباب بالإيطالية، الذي يسرني أن أقول إنني لم أتمكن من فهم مُعظمه. ألقيت نظرة سريعةً قلقة على نافذة الفتيات، لكنهن مثلي بالكاد فهمنَ ما قيل، وأنا مُمتنة للقول إن أحدًا منَّا لم يفهم كلمة واحدة من إجابة جينارو.

صاح الاثنان وصرخ كلٌّ منهما في وجه الآخر لمدة ١٠ دقائق تقريبًا، وفي النهاية اندفع جينارو عائدًا إلى حاوية الفحم الخاصة به، وانفجرت سينيورا سكافيتي في البكاء، كما هو مُتوقع؛ لأنها كانت تقدِّر ضيوفها الإنجليز كثيرًا.

قالت وهي تبكي: «لقد قال، إن السيد يوستاس بخير كما هو، وأنه لن يُحضره. لا أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك.»

ولكن أنا يُمكنني ذلك؛ لأنني، بأسلوبي البريطاني الغبي، لديَّ بعض المعرفة عن الشخصية الإيطالية. لقد تبعتُ السيد جينارو إلى مكان نومه، ووجدتُه مستلقيًا يتلوَّى على كيس نوم قذر.

استهللتُ قائلًا: «أريدك أن تُحضر لي السيد يوستاس.»

ووجه إليَّ ردًّا غير مفهوم.

«إذا أحضرته، سأُعطيك هذه.» وأخرجتُ من جيبي ورقةً نقدية جديدة من فئة العشر ليرات.

لم يرد هذه المرة.

وتابعت: «هذه الورقة تساوي ١٠ ليرات من الفضة»؛ لأنني كنت أعرف أن الإيطالي الذي ينتمي إلى الطبقة الفقيرة لا يستطيع تخيُّل مبلغٍ كبير دفعةً واحدة.

«أعرفها.»

«أي إنها تساوي ٢٠٠ سولدي.»

«لا أريدهم. يوستازيو صديقي.»

وضعت الليرات العشر في جيبي.

«كما أنك لن تُعطيني إيَّاها.»

«أنا رجل إنجليزي. الإنجليز يُنفذون دائمًا ما يَعِدون به.»

«هذا صحيح.» من المذهل كيف يثِق بنا أكثر شعبٍ مخادع. في الواقع، غالبًا ما يثِقون بنا أكثر مما يَثِق بعضنا ببعض. ركع جينارو على كيس نومه. كان الظلام شديدًا بحيث لم أتمكن من رؤية وجهه، لكنني شعرتُ بأنفاسه الدافئة التي تفوح برائحة الثوم تخرج من فمه في شهقات، وأدركتُ أن جشع الجنوبيين الأبدي قد سيطر عليه.

«لا يُمكنني إدخال يوستازيو إلى المنزل. قد يموت هناك.»

أجبتُ بصبر: «ليس عليك أن تفعل ذلك. عليك فقط أن تحضره إليَّ، وسوف أقف بالخارج في الحديقة.» وافق الشاب المثير للشفقة على هذا، كما لو كان شيئًا مختلفًا تمامًا عن طلبي السابق.

«ولكن أعطِني أولًا الليرات العشر.»

«لا»، رفضتُ لأنني كنت أعرف أي نوعٍ من الأشخاص كان عليَّ التعامُل معه. من يخون مرة، يخون دائمًا.

عدنا إلى الشرفة، وانطلق جينارو، دون أن ينبس ببنت شفة، وهرول نحو صوت الخطوات المسرعة التي يمكن سماعها في الطرف البعيد. ابتعدتُ أنا والسيد ساندباتش وليلاند قليلًا عن المنزل، ووقفنا في ظل الورود البيضاء المتسلقة، وكنا غير مرئيَّين تقريبًا.

سمعنا جينارو ينادي على «يوستازيو»، تلا ذلك صيحات سرور عبثية من الصبي المسكين. توقف صوت الخطوات المسرعة وسمعناهم يتحدَّثان. اقتربت أصواتهما، وسرعان ما تمكنت من تمييزهما من خلال فروع الشجرة المتسلِّقة، رأينا هيئة الشاب البشعة، والصبي الصغير النحيل ذا الرداء الأبيض. وضع جينارو ذراعَه حول رقبة يوستاس، وكان يوستاس يتحدث الإيطالية بطلاقةٍ غير مُتقنة.

سمعته يقول: «أنا أفهم كل شيء تقريبًا. الأشجار، التلال، النجوم، المياه، أستطيع رؤية كل شيء. لكن أليس هذا غريبًا! لا أستطيع تمييز الرجال نوعًا ما. هل تعرف ما أعنيه؟»

قال جينارو بجدية: «أجل، فهمت»، ورفع ذراعه عن كتف يوستاس. لكنني حركت ورقة النقود الجديدة في جيبي، وسمع ذلك. مد جينارو يدًا مرتعشة، فقبض عليها يوستاس بيده بلا تشكك.

تابع يوستاس: «هذا غريب!»، — كانا الآن قد اقتربا جدًّا — «يبدو الأمر تقريبًا كما لو ... كما لو ...»

اندفعتُ للخارج وأمسكتُ بذراعه، وأمسك ليلاند بالذراع الأخرى، وتشبَّث السيد ساندباتش بقدمَيه. أطلق صرخاتٍ حادة تخترق القلب. وتساقطت عليه الورود البيضاء، التي كانت تتساقط في وقتٍ مبكر من ذلك العام، بينما كنَّا نسحبه إلى داخل المنزل.

بمجرد دخولنا المنزل توقف عن الصراخ، لكن انفجر صامتًا يبكي بدموع غزيرة، سالت على كل جزء من وجهه المضطرب.

توسَّل قائلًا: «لا تأخذوني إلى غرفتي. إنها صغيرة جدًّا.»

ملأتني نظرته الحزينة حزنًا مُطلقًا بشفقةٍ غريبة، لكن ما الذي يُمكنني فعله؟ علاوة على ذلك، كانت نافذته هي الوحيدة المثبت بها قضبان.

قال السيد ساندباتش الطيب: «لا تقلق يا فتاي العزيز. سأرافقك حتى الصباح.»

عند هذا بدأ يصارع بتشنُّج مرة أخرى. «أوه، أرجوك، لا تأخذني إلى غرفتي. أي شيء غير ذلك. أعدك بأن أبقى ساكنًا وألا أبكي أكثر مما أطيق، إذا تركتموني وحدي.»

وهكذا وضعناه على الفراش، وغطَّيناه بالملاءات، وتركناه يبكي بمرارة، ويقول: «لقد رأيتُ كل شيء تقريبًا، والآن لا أستطيع رؤية أي شيءٍ على الإطلاق.»

أبلغنا الآنستَين روبنسون بكل ما حدث، ثم عُدنا إلى غرفة الطعام، حيث وجدنا السيدة سكافيتي وجينارو يتهامسان معًا. أخذ السيد ساندباتش قلمًا وورقة، وبدأ يكتب رسالة إلى الطبيب الإنجليزي في نابولي. سحبت النقود على الفور، وألقيتُها على الطاولة لجينارو.

قلت بصرامة لأنني كنتُ أفكر في الثلاثين قطعةً من الفضة: «هذا هو أجرك.»

قال جينارو: «شكرًا جزيلًا لك يا سيدي»، وأخذها.

كان يهم بالمغادرة عندما سأله ليلاند، الذي كان اهتمامه ولامبالاته دائمًا في غير محلهما، عما كان يقصده يوستاس بقوله: «إنه لا يستطيع تمييز الرجال نوعًا ما.»

«لا يمكنني القول. السيد يوستازيو ...» (كنتُ سعيدًا بملاحظة القليل من الاحترام في كلامه أخيرًا) «لديه عقل حاذق. وهو يفهم أشياء كثيرة.»

أصر ليلاند قائلًا: «لكنني سمعتُك تقول إنك تفهم ما يَعنيه.»

«أفهم، ولكن لا أستطيع الشرح. أنا صيَّاد إيطالي فقير. ومع ذلك، اسمع؛ سأُحاول.» تنبهتُ أن أسلوبه كان يتغير، وحاولتُ إيقافه. لكنه جلس على حافة الطاولة وبدأ يقول بعض الملاحظات غير المترابطة على الإطلاق.

أشار أخيرًا: «إنه أمر مُحزن. ما حدث أمر محزن للغاية. ولكن ما الذي يُمكنني فعله؟ أنا فقير. لست مسئولًا عن ذلك.»

استدرتُ بعيدًا في ازدراء. واصل ليلاند طرح الأسئلة. أراد أن يعرف من كان يقصده يوستاس عندما تحدث.

أجاب جينارو بجدية: «هذا يسهل معرفته. إنه يقصدك، ويقصدني. ويقصد كل من في هذا المنزل، والكثير ممَّن خارجه. إذا أراد أن يمرح، ضايقناه. وإذا طلب أن يكون بمُفرده، أزعجناه. لقد اشتاق إلى صديق، ولم يجده لمدة ١٥ عامًا. ثم وجدَني، وفي الليلة الأولى، أنا من كنت في الغابة وفهمتُ أشياء أيضًا، خنتُه وسلمتُه إليكم ليموت، ولكن ما الذي يُمكنني فعله؟»

قلت: «رويدًا، رويدًا.»

«أوه، إنه سيموت بالتأكيد. سيرقد في الغرفة الصغيرة طوال الليل، وبحلول الصباح سيكون ميتًا. إنني أعلم هذا على وجه اليقين.»

قال السيد ساندباتش: «هذا يكفي. سأجلس معه.»

«لقد جلست فيلومينا جيوستي طوال الليل مع كاترينا، ولكن كاترينا ماتت في الصباح. لم يسمحوا لها بالخروج، على الرغم من أنني توسَّلت إليهم، وصليت، ولعنت، وطرقتُ الباب، وتسلقتُ الجدار. لقد كانوا حمقى جهلة، وظنوا أنني أرغب في حملها بعيدًا وفي الصباح كانت ميتة.»

سألت السيدة سكافيتي: «ما كل هذا؟»

فأجابت: «تنتشر جميع أنواع الشائعات حول هذا الأمر، وهو من بين كل الناس على الأقل، له الحق في ترديدها.»

تابع جينارو قائلًا: «وأنا على قيد الحياة الآن؛ لأنه لم يكن لديَّ آباء ولا أقارب ولا أصدقاء؛ لذا، عندما حلَّت الليلة الأولى، كان بمقدوري الركض في أرجاء الغابة، وتسلُّق الصخور، والغطس في الماء، حتى حققتُ رغبتي!»

سمِعنا صرخةً قادمة من غرفة يوستاس، صوتًا خافتًا لكنه ثابت، مثل صوت الريح في غابة بعيدة، يسمعه من يقف في هدوء.

قال جينارو: «كان هذا هو آخر صوت أصدرتْه كاترينا. كنتُ معلَّقًا بنافذتها في ذلك الوقت، واندفعت روحها على مقربة مني وتجاوزتني.»

وبينما كان يرفع يده، التي كانت تُمسك بنقودي، لعن السيد ساندباتش وليلاند ولعنني، ولعن القدر؛ لأن يوستاس كان يموت في غرفته بالطابق العلوي. هذه هي الطريقة التي يعمل بها عقل الجنوبيين، وأعتقد حقًّا أنه لم يكن ليتحرك حتى في ذلك الوقت، لولا أن ذلك الأحمق الرهيب ليلاند، دفع المصباح بمرفقه دون قصد. لقد كان مصباحًا مبتكرًا يُطفأ ذاتيًّا، اشترته السيدة سكافيتي، بناءً على طلبي الخاص، بدلًا من المصباح الخطير الذي كانت تستخدمه. وكانت النتيجة أنه انطفأ. وكان لمجرد التحول الملموس من النور إلى الظلام قوة أكبر على الطبيعة الحيوانية الجاهلة لجينارو، كانت تلك القوة أكبر من أكثر الأشياء بداهةً التي يُمليها المنطق والعقل.

لم أره، ولكنني شعرت أنه غادر الغرفة، وصرخ في وجه السيد ساندباتش قائلًا: «هل تحمل مفتاح غرفة يوستاس في جيبك؟» لكن السيد ساندباتش وليلاند كانا كلاهما على الأرض، بعدما ظن كلٌّ منهما أن الآخر جينارو، وأُهْدِرَ وقت ثمين آخَر في العثور على عود ثقاب. بالكاد كان لدى السيد ساندباتش الوقت ليقول إنه ترك المفتاح في الباب، في حالةِ رغبت الآنستان روبنسون في الاطمئنان على يوستاس، عندما سمِعنا ضجيجًا على الدرَج، ورأينا جينارو يحمل يوستاس إلى الأسفل.

هرعنا وأغلقنا الممر، ففقدا شجاعتهما وتراجعا إلى أعلى الدرج.

صاحت السيدة سكافيتي: «لقد أمسكنا بهما. لا يُوجَد طريق آخر للخروج.»

كنا نصعد الدرج بحذَر، عندما سمِعنا صرخة مُرعبة آتية من غرفة زوجتي، أعقبها ارتطام قوي على الممر الأسفلتي. لقد قفزا من نافذتها.

وصلت إلى الشرفة في الوقت المناسب ورأيت يوستاس وهو يقفز فوق حاجز سور الحديقة. هذه المرة كنتُ أعلم يقينًا أنه سيلقى حتفه. لكنه وقع على شجرة زيتون، وهو يبدو كعثة بيضاء كبيرة، وانزلق من الشجرة إلى الأرض. وبمجرد أن لامسَت قدماه العاريتان تراب الأرض، أطلق صرخةً عالية غريبة، لم أكن أعتقد أن الصوت البشري يقدر أن يُصدرها، واختفى بين الأشجار بالأسفل.

صاح جينارو، الذي كان لا يزال جالسًا على الممر الأسفلتي: «لقد فهم وخُلِّصَ. والآن، بدلًا من أن يموت، سيحيا!»

«وأنت، بدلًا من الاحتفاظ بالليرات العشر، ستُعطيني إيَّاها»، هكذا أجبتُ لأنني لم أعُد قادرًا على احتواء نفسي بعد هذا التعليق المسرحي الذي قاله.

هسهس بصوتٍ بالكاد مسموع: «الليرات العشر ملكي.» وضع يدَه على صدره لحماية مكسبه غير المشروع، وبينما كان يفعل ذلك، تأرجح إلى الأمام وسقط على وجهه على الممر. لم يكسر أيًّا من أوصاله، وقفزة كهذه لم تكن لتقتُل رجلًا إنجليزيًّا على الإطلاق؛ لأن مسافة السقوط لم تكن كبيرة. لكن هؤلاء الإيطاليين البائسين لا يتحلَّون بالقدرة على التحمُّل. لقد حدث خطبٌ ما بداخله، ولقي حتفه.

كان الصباح لا يزال بعيدًا، ولكن بدأ نسيمه يحل، وتساقط علينا المزيد من أوراق الورد ونحن نحمِله إلى الداخل. انفجرت السيدة سكافيتي بالصراخ عندما رأت الجثة، وفي مكانٍ بعيد أسفل الوادي باتجاه البحر، كانت صيحات وضحكات الصبي الهارب ما يزال يتردَّد صداها.

هنداوي